شعر
٤

تعلات

غسان زقطان

تذكّر الجدة

التعلاّتُ في غيبةِ الغائبة
وانتظارُ المراكب بين الظهيرةِ والعصر
حيثُ الشقوق العميقة للضوءِ
والراضياتُ الأسيرات، جداّتنا، في السهولِ
يمشّطن نومَ التلالِ ويهرمنَ في نومهن المشقّق.

لم نبصرْ البحرَ
لكنّنا نستطيعُ التأكد، بعد التسابيح،

غسان زقطان، شاعر فلسطيني مقيم في رام الله

من أنّه خلف خط التلال
تقولُ الفتاةُ التي تكْنسُ الحوشَ

حين تذكرتُ
... لما دلفنا المنارةَ
اشعلتِ ناراً وأدفأتني!

تذكّر الوحيدات

الوحيداتُ
من لم يبعن مواعيدهنّ
ولا يشترين المواعيدَ
اشعلن ناراً على التلّ
اذ يكثرُ التائهون
ويشتدّ صمتُ الهواء

الوحيداتُ
يمشين في الظلّ
سربٌ من السرو يجتازُ خطَّ التلال
كتنهيدة الناي
أو كالصفير...

الصفير الوحيد الذي قد تراه هنا
غالباً في المساء...

الوحيداتُ

من لا نحبُ
ومن لا نواعدُ
ارسلن من يشرح الأمرَ للعابرين

وأسهبن.....

تذكر التائبات
والتائباتُ
اللواتي رجعنَ الى البهو من غيرةٍ في الجوار
على وهنٍ بعد صبح طويل وعصر، يحممّن اكتافهنّ
ويخلطن اعذارهنّ القليلة بالماء

فيما تؤدّي الحديقةُ دوراً جديداً أمام المساء
سيأخذها من تذّمر عاداتها العشر عارية حيث
تنتظر الأغنية:

يذهبونْ
مثلما
دائماً،
يذهبونْ
بعد أن يتركوا الخبزَ
فوقَ الوسادةِ
والشمع
في
الأمنية.

عندما تذهبين لقطف السفرجل

1

يا ابنتي
عندما تذهبين لقطفِ السفرجلِ
لا توقظيني

أنا ميتُ منذ وقت طويل، كما تعرفين،
أنام على حجرٍ باردٍ مثل صيف قديم
تقلّبني الشمسُ ذات اليمينِ وذاتَ الشمالِ
وتنقرُ رأسي العصافيرُ

مررّني الضوءُ للظلّ
والظلُّ للضوءِ

... كانت لغاتُ العبيدِ ولهجاتهم تملأُ الليلَ
لّما عبرتُ،
وكانت تعاويذهم تمسكُ الذكريات
وتسحبها خلفهم مثل نمل كثيف

وكانت دفوفُ المغنّين تسبحُ كالطوفِ حولَ الشعاع
وترفعني في هواءٍ سعيد

وكنتُ على حافةِ الكرم، كرم السفرجل،
أقرأ روميّةً، ربما ، للأمير الأسير :

فليتك تصفو.....

2

يا ابنتي
عندما تذهبين لقطفِ السفرجل
لا توقظي حارسَ الكرم من نومه

انّه ميتٌ منذ وقتٍ طويل، كما تعرفين،
مخدّته من عظامِ البنات
وفرشته من أساور زوجاته الميتات
وفي خُرجِهِ رأس زوجته الهاربة

حاولي أن تغني قليلاً أمام الشجيرات
حتى تحبك.

كم كان عذباً غناؤك في ليلةِ المولدِ النبويّ
ونحنُ على طَرْفِ من مكان

فقيران نسعى

وكان الغناءُ يمرّرنا في تعاريجهِ طائرين من القش!

كان الدراويشُ يلقون أجسادَهم في الدوائرِ
والماءُ يخرجُ من جبّة الصخر
والصخر في اثر الصيف
والصيف من صنعة الشمس
والشمس في اهلها

هكذا تؤخذ النفس!

3

يا ابنتي
عندما تذهبين لقطف السفرجلِ
لا توقظي حارسَ الكرمِ
أو ابنهِ

ابنهُ ميتٌ منذ وقتٍ طويلٍ،

ثلاثُ رصاصاتْ
في قلبه يغتسلنَ

ثلاثةُ أشباحْ
كانوا على بابه عند منتصف الليلْ.

ثلاثُ نساءٍ
تنهدّن في صوتهِ قبلَ أن يفتح البابْ.

ما يُشبه الحبّ
أو ما يليه
وما يترك الأمرَ مبتذلاً كالوشايةِ

لا توقظيهِ
إذن
انه ميتٌ عند منعطفٍ في الحكايةِ
رائحة النهر فيه

تمنّي قليلاً أمام الشجيرات
كي يستطيع التذكر.

كم كان عذباً غناءُ المغاربةِ السابحين على صفحة النهر قبل الزوال،
النساءُ اللواتي اتكأن على الجسرِ بين سلالِ الخضارِ وأضرحةِ الأولياءِ
وأطفالهن...

الرباطُ البعيدةُ في أهلها حيث تختبئُ الأندلس
والرباطُ التي كلما قلتُ أذهب من بهوها أفردتْ للنوايا بساطاً
ومدّت بساط!

أفاطم

لو مِلْتِ لِي

أو تَذَكّرتني

تلك أغنية النهر،

لاهتزّ قلبي

وأسعدتني

واهتدى

في التلال الغزال

ولكنَّ فاطمةَ لم تكن غير اغني

أطلقتها القواربُ

والنسوةُ الميتات على الجسرِ

في أمسياتِ الرباط!

4

على بابها دق رحالّة في الصباح

ولم تستفق

وعند الظهيرة أيقظها طائر

من كتاب ولم تستفق

وفي الليل جاءت من الكرم بنت

بشعر قصير

وكمّين متسخين

وحمل سفرجل.

نادت على أهلها الميتين
لسبع ليال
وسبعة أيام
كاملة في الحساب

الفتاة التي دقّت الباب في الليل

كانت هناك
بشعر قصير
وكمين متسخين
وصوت غراب.
قالت لها امرأة في الثلاثين
أيقظها الصوت من موتها :
ولدتك في الحلم، لست
حقيقية كي نحبك مثل البنات
اذهبي كي نحبك عشرين عاما
وكي نستطيع انتظارك،
لا تكبري في الضباب
لئلا نموت

دلت علي الهداهد

هنا جالسٌ حيثُ تعرفني الطيرُ
دلّت علي الهداهدُ

واشتدَّ نقرُ الدفوفِ
وقد ثقل الفجرُ
والسائلون.

لم ترجع ابنتنا من قطافِ السفرجلِ
دلّتْ عليها الذئابْ

وكانت هناك الإشارات
متروكةً في الدروبِ
يقلّبها الجاهلون

الإشارات، من أرسلتني إلى هذه البئر.

سلّمي آيتي
والتعلاّت منزلتي
والنساءُ اللواتي تتّبعنني في الضُّحى
والظهيرة والعصر
أيقظن أزواجهنّ وعدن على مركبِ الليل
مثل الأمانات.

على هدي عتمتها اصعد البئر
كي يشرب الضوء وجهي
وكي المس الطير في نومها
كي تقول غداً:

لم نكد نتبع الحلم
حتى أفقنا!

وكي استطيع التذكر
إنا مشينا وراء على عتمة البئر
حتى وصلنا معاً
وافترقنا

ولما شربنا من الماء سبعاً
ولما ارتوينا وكدنا
شرقنا.

لا مهنة لي غير هذا

.... التعلاّت في غيبة الغائبة

كل ما يمكن الخوض فيه وتأويله للمساء الذي سوف ابلغه في المساء

الصعود من البئر مشيا
خفّةُ الليلِ
صوتُ الجبالِ
انتظارُ الكرومِ
اختيارُ العدّو
وتأليف منعطفٍ في الحكاية
حتى نطيلَ العشّية
أو نستطيعَ التوّقع

أو نجعلَ الامر محتملاً
كسرُ أمنية
كي نرى الخيلَ تطوي الجبال الموّشاة بالبحر طّيا

الرضى والتذّمر
رؤيا كُثّير
ذئبُ الأحيْمر
مرثاةُ مالك
لّما تتبّعه للثغورِ الغضا ميتاً
ثم ناداه حيّا

البنفسجُ في الوصف
لّما نربّي الجنازات في الشعر
أو نأخذ امرأة، دون إذن، من المصعد الدائري
إلى غرفةٍ في المجاز.

ويُسئم
ني ما عرفْتُ
وما سوفَ أعرفُ

من مكمني أبصرُ الخائفينَ وأحسدهم
أبصر النادمين وأحسدُ بالأمرْ

لا مهنةً لي غيرَ هذا
ولا سِرْ...

... تأملّهم في دخانِ اللفافات والارتياب
وتدوير اسمائهم في النداء

التجول خلف الرواية، بعد الخطاب
مع العائدين مشاة من المتن

لا البيتُ يأخذهم للمساءِ الغريبِ
ولا الدربُ تحملهم للضواحي الأليفةِ

لا مهنة لي غير هذا
... وتجميع أكمامهم من زوايا المقاعد

كالبرد أجمعهم.

الطائر يتبعني

في العام ألفين أو قبله، ربّما،
كان يسكنني مطلعٌ يشبهُ الصيفَ في غرفِ العازبين
أدوّرهُ في الكلام...

كمشي سعيدٍ على حافةٍ من رخامٍ، وتنظيفها من غبارٍ
خفيفٍ ستتركهُ في الحوافّ البغالُ التي صعدتْ
مثل عادتها الجرفْ...

« ...في منزلي
تلدُ النساءُ خواتماً
ويغبن عن دنيا وراءَ البابِ
جنّةُ من أحبّ هنا
ورحلةُ من رأى ... »

مطلعٌ مثل باقي المطالعِ
لم أنتشلهُ من التمتماتْ.

كطيرٍ من القشّ

يتبعني...!
لا مركب للمحبّ سوى شوقه
لا دليلَ له
غيرهُ
أو كتابْ

والتعلاّت
لو تعرفين
ستفتح باباً
وتغلق باب.

... وتتركني مثل شأنٍ قديمٍ على رفّ أيامها
جيرتي صورُ الغائبين
وتحديقُ أعينهم في الغبار

وتفتيشُ أعمارهم حين يُؤتى بها كي تمرَّ على عجلٍ
ثم تُرمى.

على الرفّ قربيَ موتى يحومون
أحياءُ لا يعرفون الجواب
ولا يبصرون الطريقَ إلى إثمها

لن يدلَّ على نومها في فراشي سوى حلمها
والعناقُ الذي يترك القلب أعمى!

لا مشقّة في السيرِ في طرقٍ مهدّتها الذئاب.

لها ما أحبت
ولي ما أردت
وللناس ما اختلسوا من رؤىً أسعدتها
وللعابرينَ نوايا المكانْ.

أقامت هنا ما أقام الغرام
خفيفاً على قلبها أو يكادُ
مشت في المنام
وألقت زهوراً على الطائفين

ولم تنتبه للسماء التي انفتحت فوقها
«وردةً كالدهان»

ونامت قليلاً

ولما رأت شارةً صدّقتها!

نزل صغير في جنوا

الإشارة في ردهة الدير

مقهى اليف يطل على شارعين غريبين في «جنوا»

يشبه الأمر إنا مررنا هنا!

واضحاً كان هذا التشوّش لما دلفنا إلى مدخل النزل

في نبرة المالك المشتراة من الموت

أو يده وهي تعطي المفاتيح

أو خشّة السلسلة

في الذهاب إلى حافة الصوت حتى التقاط تنفسنا بين فوضى الموائد، ماكينة القهوة، العابرين، الجدال على البار، فوضى البطالة في صفحة الاقتصاد، الوجوم واطراقة الجالسيْن أمام الزجاج، المشادة في المدخل الجانبي...

الشتاء الذي اشتد في الليل، منتصف الليل، كي يجعل الأمر أعمق من مشهد العاشقين أمام الفراش المرتب في نزل جاء من زمن آخر كي يكونا هنا ليلة أو اقل...!

تذكّر الحرير

.. الأميرة في نومها والمساء على حافة النافذة

خزانتها بعد قوسين في البهو مفتوحة

والخزانة سوداء

أشباحها في الخزانة هادئة وهي تأكل ذكرى الحرير

ملابسها الداخلية بيضاء

شرشفها ابيض

والتعاويذ منسية في المرايا

وكانت شؤون المنازل، أيضا ، هناك

الثياب التي استخدمتها اليمامات في الصيف

رائحة الزيت

فوضى يديها التي تركت اثراً في القماش الخفيف على منبت النهد

شيء من الارتياب

على عسل الصوتْ

لا مشقّة في البعد

لكنه سبب كامل لانتظار المجرّة في البيت!

ليس لي سبب

ليس لي سبب كي اظل هنا

ليس لي سبب كي أربّي الجنازة كالآخرين

ليس لي سبب لانتظار على درج الدار.

بناؤو كفافي

لي نغمة في اللحن

لم اعثر بها

لكنها ذهبي الوحيد
وحيلتي

فيها احتمال الارتجال
ورفقة الأفعال
والسرد المتين

كأن بنائين سريين أيقظهم كفافي
يعبرون من التلال
ويبدأون الحفر عند مخدتي!

تذكّر البكاء

البكاء الذي في الرضى والبكاء الذي في البكاء،
البكاء الذي ليس لي والبكاء الذي في ألاغاني

البكاء الذي يرتدي وهو يأتي
قلادتها، لمعة الصدر والكتفين، القميص المشجّر والخفّ والمئزر
الأبيض المنزليّ

البكاء الذي لم يزل مقعياً قرب نومي كذئب «الفرزدق»

« فصرت أقدّ الزاد بيني وبينه
على ضوءِ نارٍ تارةً ودخانِ»

تذكّر النوم

على طرف النوم تمثالها
حيلتي بعدها أن تُرى الأرض
أو أن تُعادَ إلى أهلها
ان افكّر كالنسر
، هل قلت هذا لعشرين عاماً خلت او يزيد
وها انني لم ازلْ في المكان
وما زلت اعدو!
طليقاً ومرتهناً بالحضورْ

كما شاء ان يحبسَ الذئبَ في عدوهِ، البحتريُّ

«عوى ثم أقعى فارتجزتُ فهجته
فأقبل مثل البرق يتبعه الرعدُ»

على ضوء ذئبين
أغفو

فتعوي الحديقةُ
خلف الزجاجْ

ويعوي السياجْ

وتعوي الطيورْ